بسم الله الرحمن الرحيم

# "آفاق التغيير ومنطلقاته"

د. طه جابر العلواني

انطلاقا من قوله تعالى :

١ ) «ذلك بأنّ الله لم يكُ مغيِّرًا نعمة أنعمها على قوم حتَّىٰ يُغَيِّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميع عليم» (سورة الأنفال : ٥٣) .

٢ ) وقوله تعالى : «له معقِّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردَّ له ، وما لهم من دونه من وال» (سورة الرعد : ١١) .

«التغيير» - في لغتنا العربيَّة - يطلق على وجهيْن :

الأول : تغيير صورة الشئ دون ذاته .ومنه تغيير الشيب بالحنّاء وغيره .

الثاني : تبديل الشئ بغيره ، ومنه قولهم : «غيّرت منزلي» ونحوه (١) .

ويطلق عند الكاتبين من المعاصرين - على تغيُّر الأحوال العامَّة لدى الأمم حتى شاع استعماله لديهم في ذات المعاني التي تستعمل فيها مصطلحات أو مفاهيم «التجديد» و«الإصلاح» و«الثورة» و«الانقلاب» و«النهضة» و«التحديث» ونحوها .

وأمَّا الآيتان الكريمتان اللتان جعلنا منهما منطلق هذا الدرس فأولاهما آية سورة الأنفال . وقد وردت بين آيتيْن من آيات السورة في معرض تسجيل القرآن العظيم لوقائع المعركة الأولى والكبرى في تاريخ الرسالة المحمّدية - معركة بدر الكبرى ، وتوضيح أن النكال الذي أصاب قريشا في بدر كان سببه ما قدمت أيديهم وأن الله - تعالى - لم يظلمهم ولم يعرّضهم لما لا يستحقون ، فقال جل شأنه : «كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب (٥٢) ، ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم (٥٣) كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين (٥٤)» .

وأما الثانية - وهي آية سورة الرعد - فقد وردت بعد آيات تتحدث عن شمول علم الله - تعالى - وإحاطته بكل شئ سواء أكان من عالم الغيب أو من عالم الشهادة وسواء أكان قولا معلنا أو خفيًّا كعلمه - جلت قدرته بمن هو مستخف بالليل وسارب في النهار ، وتلتها آيات تتحدث عن تمام وكمال قدرة الله - جل شأنه - الذي يُري الناس آياته البينات في

الكون المشاهد لهم المحسوس لديهم من برق ورعد وصواعق وسماوات وأرضين وما يبصرون وما لا يبصرون ، وكثير من هذه الظواهر تثير في نفوسهم المشاعر المختلفة من خوف وطمع ونحوها : «الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدرا (٨) عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (٩) سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار (١٠) له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (١١) هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال (١٢) ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال (١٣)» . وفي ذلك تنبيه لطيف إلى العلاقة بين الظواهر الطبيعية والأحوال النفسية ، تحدث للإنسان حاجات أخرى تزيده ارتباطا بخالقه جل شأنه وفقرا إليه - تعالى - فيحوطه جل شأنه بالمعقبات من الملائكة تتعاقب على حراسته وحمايته .

**التفسير :**

بعد دراسة ما أورده ابن جرير الطبري والنيسابوري والقرطبي وغيرهم وجدت من أجمع ما جاء في تفسير الآيتيْن ما أورده الفخر الرازي رحمه الله حيث قال : (٢)

قوله تعالى : «كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب ، ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين» .

في الآية مسائل :

المسألة الأولى : أنه تعالى لما بيَّن ما أنزله بأهل بدر من الكفار عاجلا وآجلا كما شرحناه أتبعه بأن بيَّن أن هذه طريقته وسنته في الكل . فقال (كدأب آل فرعون) والمعنى : عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون في كفرهم . فجوزي هؤلاء بالقتل والسبي كما جوزي أولئك بالإغراق وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل يقال : فلان يدأب في كذا ، أي يداوم عليه ويواظب ويتعب نفسه ، ثم سميت العادة دأبا لأن الإنسان مداوم على عادته ومواظب عليها .

ثم قال تعالى : «إن الله قوي شديد العقاب» والغرض منه التنبيه على أنَّ لهم عذابا مدخرا سوى ما نزل بهم من العذاب العاجل ، ثم ذكر ما يجري مجرى العلة في العقاب الذي أنزله بهم ، فقال (ذلك بأن الله لم يك مغيِّرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم) .

ثم قال : المسألة الثانية : قال القاضي : معنى الآية أنه تعالى أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ويعدلوا عن الكفر ، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق و الكفر ، فقد غيَّروا نعمة الله ـ تعالى ـ على أنفسهم فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم والمنح بالمحن ، قال : وهذا من أوكد ما يدل على أنه تعالى لا يبتدئ أحدا بالعذاب والمضرة والذي يفعله لا يكون إلا جزاءا على معاصى سلفت ولو كان تعالى خلقهم وخلق جسمانهم وعقولهم ابتداء للنار كما يقوله القوم (يعني الجبريّة) لما صح ذلك ، قال أصحابنا : ظاهر الآية مشعر بما قاله القاضي الإمام إلا أنا لو حملنا الآية عليه لزم أن تكون صفة الله تعالى معللة بفعل الإنسان ، وذلك لأن حكم الله بذلك التغيير وإرادته لما كان لا يحصل إلا عند إتيان الإنسان بذلك الفعل ، فلو لم يصدر عنه ذلك الفعل لم يحصل لله تعالى ، ويكون الإنسان مغيِّرا صفة الله ومؤثرا فيها ، وذلك محال في بديهة العقل : فثبت أنه لا يمكن حمل هذا الكلام على ظاهره ، بل الحق أن صفة الله غالبة على صفات

المحدثات ، فلولا حكمه وقضاؤه أولا لما أمكن للعبد أن يأتي بشئ من الأفعال والأقوال .

المسألة الثالثة : أنه تعالى ذكر مرة أخرى قوله تعالى (كدأب آل فرعون) وذكروا فيه وجوها كثيرة . الأول : أن الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول ، لأن الكلام الأول فيه ذكر أخذهم ، وفي الثاني ذكر إغراقهم وذلك تفصيل . والثاني : أنه أريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة في حال الموت ، وبالثاني ما ينزل بهم في القبر في الآخرة . الثالث : أن الكلام الأول هو قوله (كفروا بآيات الله) والكلام الثاني هو قوله (كذبوا بآيات ربهم) فالأول إشارة إلى أنهم أنكروا الدلائل الإلهية ، والثاني إشارة إلى أنه سبحانه رباهم وأنعم عليهم بالوجوه الكثيرة ، فأنكروا دلائل التربية والإحسان مع كثرتها وتواليها عليهم . فكان الأثر اللازم من الأول هو الأخذ ، والأثر اللازم من الثاني هو الإهلاك والإغراق وذلك يدل على أن لكفران النعمة أثرا عظيما في حصول الهلاك والبوار ، ثم ختم تعالى الكلام بقوله (وكل كانوا ظالمين) والمراد منه أنهم كانوا ظالمي أنفسهم بالكفر والمعصية ، وظالمي سائر الناس بسبب الإيذاء والإيحاش .

هذا فيما يتعلق بآية سورة الأنفال .

أما تفسيره لآية سورة الرعد فقد ورد فيه قوله :

«أما قوله تعالى : «إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم» فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد . قال القاضي : والظاهر لا يحتمل إلا هذا المعنى لأنه لا شئ مما يفعله تعالى سوى العقاب إلا وقد يبتدئ به في الدنيا من دون تغيِّر يصدر من العبد فيما تقدم ، لأنه تعالى ابتدأ بالنعم دينا ودنيا ويفضل في ذلك من شاء على من يشاء . فالمراد مما ذكره الله تعالى التغيير بالهلاك والعقاب .

ثم اختلفوا فبعضهم قال : هذا الكلام راجع إلى قوله «ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة» فبين تعالى أنه لا ينزل بهم عذاب الاستئصال إلا والمعلوم منهم الإصرار على الكفر والمعصية ، حتى قالوا : إذا كان المعلوم أن فيهم من يؤمن أو في عقبه من يؤمن فإنه تعالى لا ينزل عليهم عذاب الاستئصال . وقال بعضهم : بل الكلام يجري على إطلاقه ، والمراد منه أن كل قوم بالغوا في الفساد وغيروا طريقتهم في إظهار عبودية الله تعالى فإن الله يزيل عنهم النعم وينزل عليهم أنواعا من العذاب . وقال بعضهم : إن المؤمن الذي يكون مختلطا بأولئك الأقوام فربما دخل في ذلك العذاب . روى عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب» (٣) اهـ .

وهاتان الآيتان تصوغان ـ عند التجريد ـ قانونا للتغييّر الاجتماعيّ القائم على التصور الإيمانيّ ، وتبنيان دعائم متينة لفلسفة تغيير إسلامية ، ما أحوج البشرية كلها إليها !! ولو أن هاتين الآيتين أخذتا ما تستحقانه من عناية وتدبر وتأمل لأمكن الخروج منهما بقواعد لعلم من علوم الاجتماع الإسلامي يمكن أن يسمى «بعلم التغيير» أو التجديد . لكن جل من أطلعنا على تفسيرهم لهما ما تجاوزوا ـ تقريبا ـ فكرة «ربط كل ما يحدث للناس في حياتهم الاجتماعية والمحيط الخارجي الذي يحيط بحياتهم تماما بما يحدث في نفوسهم من تغيّرات» . وأنّ في الآيتيْن توكيدا لمسؤولية الإنسان عما يحدث له ، وأن الآيتين تؤكدان تلازما بين تغيير ما بالأنفس ، وتغيير ما في الواقع ، ولكن لكي يفهم هذا التلازم لابد من الوعي على جملة من القضايا سيأتي تفصيلها .

لقد اتفقت كلمة قيادات التغيير والتجديد ـ عبر العصور ـ على أن الإسلام ذاته لم يُصَب بشئ من عوامل التغيير بل بقي محفوظا بحفظ الله له ومعصوما من تلك العوارض بحقيقته ومصدريه الإنشائيّ ألا وهو القرآن والبيانيّ ألا وهو السنة لكن الذي أصيب وتغير هو فهم المسلمين له ووعيهم لحقيقة رسالته وأهدافه وفقههم لمناهج التعامل مع مصدريه ،

ومناهج الربط بين قيمه والواقع ؛ وجماع هذه الأمور هي ما نطلق عليه «الثقافة والحضارة» . فحضارة المسلمين التي انبثقت عن الإسلام ، وثقافتهم التي بنيت عليه وسلوكهم ووسائل تربيتهم على قيمه ومعاييره هي بيت الداء ومواطن العلة .

وأن هذه الإصابة في بعض جوانبها ظهرت بداياتها بشكل يسير قديما كما أشار إلى ذلك كثير من الصحابة والتابعين ، ثم بدأت تتراكم وتنتشر حتى أدت إلى ذلك الخلل والعطب الذي لاتزال الأمّة تعاني منه .

وقد أورد الشاطبي في كتابه «الاعتصام» (٤) إنكار الصحابة لما قام من الأمر المحدث بأعينهم . حيث تراكمت متطلبات التغيير ومقتضياته بعد ذلك في هذا الجانب ـ جانب الفهم السليم لحقائق الإسلام وأهدافه ومراميه وخواصه ومزاياه ، وبرزت الانحرافات في الفهم كأنها نوع من العطب الثقافي ثم الحضاري ، ويعقب الشاطبيّ على ذلك بعد أن استعرض العديد من أقوال السلف في بوادر الانحراف بقوله : «وإن ذلك كان قبل زماننا وإنما تكاثر على توالي الدهور إلى الآن» .

ومنذ ذلك الحين وأئمة الإصلاح ينطلقون من هاتين الآيتين ، وفهمهم لهما وهو الفهم الذي أشرنا إلى أهم معالمه ، وينطلقون في محاولات الإصلاح ابتداءا من فهمهم هذا «من أويس القرني والسري السقطي والجنيد البغدادي وأمثالهم إلى أن جاء الغزالي وأصحابه يندب موت علوم الدين ويعمل على إحيائها ثم الإمام الطرطوشي الذي عارض إحياء علوم الدين واستنكر البدع ، وعمل على تطهير البيئة الدينية منها ، ثم القاضي ابن العربي الذي حاول أن يميز العواصم من القواصم وأسد بن الفرات وابن تومرت وعبد القادر الجيلاني ومدرسته وأبي شامة المقدسي والشوكاني فالشاطبي الذي حمل على البدع ودعا إلى الاعتصام بالأصلين الكتاب والسنة إلى ابن تيمية ومدرسته وأصحابه ، وآثارها التي استرسلت حتى تجسدت في حركات إصلاحية كثيرة في القرن الثاني عشر الهجري فكانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة

وشاه ولي الله الدهلوي في الهند وحركات سلفيَّة أخرى وجدت في المشرق والمغرب ، إلى أن تسلمت الراية «حركة الجامعة الإسلامية» التي مثلت حركة إصلاحية واسعة جعل السيد جمال الدين الأفغاني شعارها «إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم» وكذلك حركة آية الله النائيتي في إيران ومن تلاه . ثم قامت كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة «الإخوان المسلمون» وسائر الحركات الموازية في العالم الإسلامي كالجماعة الإسلاميَّة في القارة الهنديّة ، وغيرها من الهيئات ، وكلها لم تختلف على الإيمان بسلامة جوهر الإسلام ، وسلامة كل من مصدريه الإنشائيّ وهو القرآن العظيم والتفسيريّ وهو السنَّة النبويَّة المطهَّرة وأن الإصابات الأساسيَّة ظهرت في فهم المسلمين لحقيقة الإسلام وفقههم لمصادره ومناهج تطبيقهم لمُثُلِه وقيمه في الواقع ، ذلك التطبيق الذي تمثل بالثقافة والحضارة الإسلاميَّتيْن .

واتفقت كلمة الجميع على ضرورة الإصلاح والتجديد ، والقيام بمهام التغيير ، ولكن اختلفوا في مداخل التغيير ونقاط البدء والانتهاء فيه ومراحله ومراتبه تبعا لاختلافهم في رؤية الزاوية التي تسلل منها العطب ، ودخل منها الخلل ، ولكل منهم نظرة بعد ذلك في فهم آيتي التغيير وتأويلهما : فمنهم من عزا بدايات الخلل إلى أفراد الأمة وانحرافاتهم وإقبالهم على الدنيا واغترارهم بها فوجه جهوده نحو الإصلاح الفردي باتجاه روحي والعمل على التزهيد في الدنيا ، والتربية السلوكية ، وتجاوز هؤلاء أمراض الحضارة وعلل الثقافة .

ومنهم من أرجع الأمراض والإصابات إلى الفكر والمنطق كالغزالي في الإحياء وابن العربي في كثير من دراساته وابن رشد .

ومنهم من رد الخلل إلى السلوك الجماعي ، وهؤلاء منهم مَنْ ركز جهوده في مجال الإصلاح العقيديّ ، ومنهم من كرس جهده فيما يتصل بالشريعة والاعتصام بالكتاب والسنَّة كالطرطوشيّ والشاطبيّ وعزّ الدين بن عبد السلام وأمثالهم .

ومنهم من ركز على الجانب العقيدي وأضاف إليه الجانب الشرعيّ كما صرف بعض جهده لمعالجة ما يتصل بالكيان الاجتماعيّ للأمّة وصورتها السياسيَّة كابن تيمية ومدرسته ، وبهم تأثرت مدارس الإصلاحيين المتأخرين من أتباع السيد الأفغاني الذين تأثرت بهم جمهرة الحركات الإسلامية المعاصرة بعد ذلك .

ولكل من هؤلاء تقييمه الخاص لأوضاع الأمة ورؤيته في مواطن الخلل ومواضع الإصابة في حركتها .

وكل من هؤلاء لم يُوَفَّق لرؤية أهدافه أو ثمرة جهوده تتحقَّق ، ولم يرَ التغيير الذي كان ينشده يحدث فكان عذر الجميع أو عزاؤهم أن مهمتنا هي أداء ما يجب علينا وأن النتائج على الله ـ تعالى ـ فنحن نبذل الجهد والباري هو المؤمل لربط النتائج بالأسباب والمقدمات ، حتى نبتت بعد ذلك نوابت أخذت تستهين بالتقييم والمراجعة والنقد والتخطيط السابق المتقن وتقدم الإسلام بسذاجة لا تكاد تتجاوز قضايا الخلاص الفردي ومع ذلك فهي تظن أنَّها تمهّد لعالمية الإسلام المنتظرة ، وكأنها تعلن منذ البداية أن محاولاتها لن تكون خيرا من محاولات الآخرين ، ولن تكون أحسن حظا في نتائجها منها ، حتى تحولت جهود التغيير في نظر عامة أبناء الأمة إلى جزء من جهود الخلاص الفردي ؛ لا خلاص الأمة وانعتاقها من واقع التراجع .

وحين نراجع حصيلة تلك الجهود الإصلاحيّة التي لم تنقطع نجد أن معظم الحركات الإسلامية قد تأصلت وصارت لها مدارس وتيارات قوية في داخل الأمة ، لكن الأهداف الكبرى للأمة لاتزال بعيدة المنال : فقد تأصَّلت السلفيَّة وقوى سندها وقضى على كثير من البدع التي كانت سائدة ، وتجاوز الناس معظمها ، وكثير من أفكار الإصلاح في المجال التعليمي والمعرفي وجدت طريقها إلى التنفيذ ، وإن لم يكن بالشكل الذي نادى الغزالي وأتباعه ، لكن كثيرا من قضاياها قد تاصلت وتبلورت

. وما نادى به الشيخ محمد عبده وأتباعه قد تحقق كثير منه . فسلم الناس بضرورة الاقتباس من الأمم الأخرى وانفتحوا على علوم الآخرين ومعارفهم ، وطرائقهم في الحكم والسياسة والاقتصاد . وحصلت تغيّرات ـ ولاشك هنا وهناك ـ ولكن جوهر «التغيير المنشود» لم يتحقق ، وظلت تتردد بين فترة وأخرى عبارات أين الخلل ؟ ويتردَّد قوله تعالى «إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم» كجواب وحيد مفيد على السؤال .

ولقد كتب الأستاذ جودت سعيد ـ من الكتَّاب الإسلاميين المعاصرين كتابا جعل عنوانه جزءا من آية سورة الرعد : «حتى يغيِّروا ما بأنفسهم» في سلسلة «أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع» . وقد كرس الكتاب للرد على أربع تساؤلات وهي : «هل التغيير ممكن ؟» وإن كان ممكنا فهل له سنن ؟ وكيف أغيّر ؟ أو كيف يحدث التغيير ؟ وأخيرا ماذا أغيِّر ؟» .

واعتبر المؤلف الفاضل الكتاب ـ كله ـ وعدد صفحاته (٢١٥) مكرسا لتفسير هذه الآية الكريمة ، ولذلك كان من بين عناوين موضوعات الكتاب : «في الآية تغييران» ، «الترتيب بين حدوث التغييرين» ، «مجال كل من التغييرين» . الخ ذلك ؛ وقد قدم المفكر المسلم الجزائريّ مالك بن نبيّ للكتاب بمقدمة وجيزة صرح فيها بأن الحركات الإسلامية التغييرية منذ عصر الغزالي إلى عصرنا هذا لم يكتب لها النجاح إلا في بعض التغييرات السياسية ، وأن الحركات التغييرية التي قامت في العصور المتوسطة على اجتهاد فردي كاجتهاد ابن تيمية فإن أثرها لم يبق إلا في التراث الإسلامي حيث تكوّن تلك الأفكار الترسانة أو المستودع الفكري الذي تستمد منه الحركات الإصلاحية الأفكار النموذجية حتى اليوم .

ثم أكد مالك بن نبي أن حظ الحركات التغييرية المعاصرة من النجاح لم يكن بأفضل أو بأوفر من نصيب السابقات . وحاول أن يقدم

تفسيرا لهذا الفشل المتصل فقال مالك : «وقد يتأتى تفسير فشل هذه الحركات التغييريَّة إذا قلنا : إنها أتت في مجتمع لم يبق فيه مجال للتغيير بالنسبة للحركات الأولى ، أو لم يفسح فيه بعد مجال للتغيير بالنسبة للحركات المعاصرة» ثم قال : وهذا التفسير المرحلي يقنع من يؤمن بمراحل التاريخ ـ أي بالدورة الحضاريَّة ، ثم نبه إلى بعض خصائص السنن وأوضح : بأن هذه القوانين لا يتخلص من حتميتها بإلغائها ، بل بالتصرف مع شروطها الأزليَّة بوسائل جديدة : فالقانون الطبيعي لا ينصب أمام الإنسان الدائب استحالة مطلقة ، ولكنه يواجهه بنوع من التحدي يفرض عليه الاجتهاد للتخلص من سببية ضيقة النطاق ، وأن المؤلف يحاول أن ينقل القضية من مجال الطبيعة إلى مجال التاريخ ويخضع التاريخ لقانون النفوس ، فتغير وجهة النظر في سير التاريخ : فمراحل التاريخ التي تتقبل التغيير أو لا تتقبله بحسب طبيعتها تصبح كلها مراحل قابلة للتغيير ، لأن الحتمية المرتبطة بها أصبحت اختيارا يتحقق في أعماق النفوس .

ثم قال مالك : لقد أشادت ـ أيضا الحركات التغييريَّة السابقة بهذه الآية الكريمة كشعار ، لكنها لم تضع فيه سوى التبرك بكلام الله ، والتفاؤل به حيث لم تستطع أن تستنبط منها وسيلة تغيير واقتصرت على مجرد المحتوى الغيبي للآية حتى كاد المفعول الاجتماعي لها أن يعطل .

وقد اشتمل الكتاب على كثير من الفوائد ، وبذل مؤلفه الأستاذ جودت جهدا متنوعا في تقديم إضافات على ما قدمه الآخرون في تفسير الآية ، لكن تلك الإضافات وما سبقها لاتزال في حاجة إلى المزيد لتصل إلى حد توضيح السنن الإلهية وقواعدها وما يتعلق بها من قواعد التغيير الأخرى ، وبيان كيفية فعل تغيير ما بالأنفس بالبيئة الخارجية وتأثيره عليها .

وفي محاولتنا هذه لعلنا نستطيع تقديم إضافة في هذا المجال توضح أن الآية الكريمة هي قانون تغيير فعلا ؛ بل إنها تمثل فلسفة تغيير كاملة

عندما نحسن فهمها مرتبطة بما يتصل بها من آيات التغيير الأخرى ومبادئ القرآن العظيم التي ينبغي أن تفهم الآية الكريمة في إطارها . وآنذاك يتضح إن شاء الله أنها ليست مجرد شعار .

## لماذا اعتبرت الأنفس منطلق التغيير ؟

هناك خلاف قديم وحديث بين العلماء في تحديد العامل الحاسم في «التغيير» أهو المعتقدات والفكر والثقافة ، أم البنية الاجتماعيّة وما تتألّف منه ؟

إلى كل ذهب فريق من العلماء . والمذهب الذي تدل الآية الكريمة بمظاهر لفظها عليه ـ هو المذهب الأول وإن كانت عند التأمل والتدبّر تتناول الاتجاهيْن معا . فالتغيير ينطلق من الأنفس بما تشتمل علي من دواع تقوم على المعتقدات والتصوّرات لكنّه لا يبلغ غايته ولا يحقق أهدافه قبل أن يتناول البنية الاجتماعية ـ كلها ـ بما تشتمل عليه من نظم وعلاقات وغيرها .

أما انطلاقه من الأنفس فيتضح عندما ندرك أنّ التغيير ـ في المنظور الإسلامي راجع إلى الحقيقة الذاتيّة للإنسان . فوعي الإنسان بإنسانيتّه يستلزم وعيه بموقعه ، وبعبوديّته لله ـ جلّ شأنه ـ وبخلافته في الكون ومسؤوليّته عنه ووعي الإنسان بإنسانيتّه يتوقف على الوعي على جملة من المبادئ الضروريّة ، ومنها :

١ » أنّ الإنسان مؤتمن في نفسه وعليها ، ومؤتمن على الكون المسخّر كله . وأنّ الله ـ تعالى ـ خيّر الإنسان بين أن يكون مسخّرا كبقيّة الكائنات وفقا لنظام التسخير فلا يصدر عنه تلقائيًا إلا الطاعة ، وبين أن يكون مختارا حرا في اختياره إن شاء آمن وإن شاء كفر ، إن شاء أطاع وإن شاء عصىٰ ، وأن يحاسب على هذا الاختيار فإن هو أطاع أثيب ، وإن هو عصى عوقب . فاختار الإنسان حريّة

الاختيار ، فاؤتمن عليها ؛ وفي ذلك جاء قول الله ـ تعالى ـ : «إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا» ليعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما» (الأحزاب : ٧٢ ـ ٧٣) . فهاتان الآيتان تقرّران مبدأ عظيما يؤكد أنّ مجال مسؤوليّة الإنسان لا يتجاوز مجال حريّته (٥) .

٢» إنّ حمله للأمانة ، واختياره لها معزّز بفطرة الله له على القدرة على إدراك الحق والميل إلى قبوله ، لتكون هذه الفطرة عونا للإنسان على حسن الاختيار ، وعلى وضع أمانة الاختيار موضعها السليم ، في مقابل إغراءات الشياطين وضغوط الشهوات التي قد تعزز الجانب السيئ من الاختيارات .

وبهذه الفطرة السليمة يكون الإنسان على بصيرة من أمره ونور من ربه (٦) .

٣» إنّ الله ـ تعالى ـ على صراط مستقيم فلا يشاء إلا الحق ، وهو تعالى قائم بالقسط ، فلا يريد إلا العدل ، منزّه ـ جلّ شأنه ـ عن اتباع الهوىٰ : «ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن» (المؤمنون : ٧١) . وهو مبرؤٌ من الظلم «إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما» (النساء : ٤٠) «إن الله لا يظلم الناس شيئا ـ ولكن الناس أنفسهم يظلمون» (يونس : ٤٤) ، فهو سبحانه لا يظلم الناس فتيلا ولا نقيرا ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . حرّم جلّ شأنه الظلم على نفسه . وجعله بين الناس محرما . «وما ربك بظلام للعبيد» (ق : ٢٩) . وفي هذا كله تأييد وتأكيد على حريّة اختيار الإنسان ومسؤوليّته التامّة عن ذلك الاختيار وبقدر حريّته فيه .

٤» إرسال الرسل وإنزال الكتب والميزان لتعزيز حسن الاختيار ومساعدة الإنسان على حسن استعمال حريته في الاختيار ووضعها موضعها المناسب : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (الإسراء : ١٥) «لقد أرسلنا رسلنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قويٌّ عزيز» (الحديد : ٢٥) .

٥» إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل (الزمر : ٦٢) فالكون وما فيه ومن فيه من إبداعه ـ جلَّ شأنه ـ فهو «بديع السماوات والأرض وإذا قضىٰ أمرا فإنما يقول له كن فيكون» (البقرة : ١١٧) «بديع السماوات والأرض أنىٰ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم» (الأنعام : ١٠١) وكل شئ خلقه جلَّ شأنه وأبدعه بقدر : «إنا كل شئ خلقناه بقدر» (القمر : ٤٩) وصنعه بإتقان : «صنع الله الذي أتقن كل شئ إنَّه خبير بما تفعلون» (النمل : ٨٨) . وأوجده لحكمة مرسومة بغاية الدقة «حكمة بالغة فما تغني النذر» (القمر : ٥) وعلى علم محيط شامل «الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أنَّ الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما» (الجن : ٢٨) لغاية هو بالغها حتما : «إنَّ الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا» (الطلاق : ٣) . ذلك أن الله ـ جلَّ وعلا هو الحيُّ القيّوم المهيمن على كل شئ لا تخفىٰ عليه خافية يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويعلم من الإنسان ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو سبحانه ذو القدرة المطلقة «إنَّها إن تك مثقال حبَّة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله» (لقمان : ١٦) وهو سبحانه الذي : «عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبَّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» (الأنعام : ٥٩) لا يعجزه شئ ، ولا يخفىٰ عليه شئ «وكل شئ عنده بمقدار» (الرعد : ٨) أقام هذا الكون

على سنن لا تتبدل ، وأحكمه بقوانين لا تتغيَّر «ولن تجد لسنَّة الله تبديلا ولا تحويلا» .

ومن سننه جلَّ شأنه أنَّ الكون منتظم بمشيئتيْن : مشيئة عامَّة شاملة مطلقة مهيمنة هي مشيئة الإله الخالق البارئ المصوّر المالك للكون ـ كله ـ ، ومشيئة نسبيَّة خاضعة لضوابط وقيود تعمل في إطار سنن ثابتة وقوانين راسخة تستطيع اكتشافها والتعامل معها ، لكنها لا تستطيع اختراقها أو تجاوزها إلا بسلطان ومشيئة من ذي المشيئة المطلقة ـ جلَّ شأنه ـ «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان» (الرحمن : ٣٣) «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما» (الإنسان : ٣١) «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين» (التكوير : ٢٧) . والتغيير من الأفعال التي يتضح فيها انتظام عمل المشيئتين المشيئة المطلقة الإلهيَّة ، والمشيئة المحدودة النسبيَّة البشريَّة المنتظمة في المشيئة الأولى ، الداخلة تحت هيمنتها (٦) .

٦» إن أبوي الإنسان بدآ حياتهما في الجنة ، وعهد الله تعالى إلى آدم عهده «فنسي ولم نجد له عزما» (طه :) فأخرج وزوجه من الجنة وأهبطا ليواجها بتحديات أكبر من التحدي الوحيد الذي واجهاه في الجنة فنسيا ولم يتحقق آدم بالعزم المطلوب ؛ ولذلك فإن ابتلائهما وذريتهما في هذه الحياة يتطلب أن تكون لديهم فرصة التعبير عن استعادة العزم . والتغيير حين يبدأ من النفس ذاتها فذلك يعني أن الإنسان قد استعاد صفة العزم وزايلته صفة النسيان التي كانت سبب هبوطه من الجنة . وأصبح قادرا وجديرا بالقيام بمهمة العمران والخلافة في الأرض ، وحفظ أمانة الاختيار ، وأداء العمل الأحسن لينجح في الابتلاء . ومنطلق ذلك كله نفسه التي عليه أن يتعهدها باستمرار بالملاحظة والتوجيه والحفظ وتعليم الكتاب والحكمة والتزكية والتربية والتكوين لئلا تتغيَّر فيتغيَّر كل ما حولها .

٧» إن الله - جلَّ وعلا - وقد أحاط بكل شئ علما - ثبت في علمه تبارك وتعالى أن أكثر الناس لن يحافظوا على أمانة الاختيار ولن يقوموا بمهام الخلافة كما ينبغي ، ولن يحسنوا في أعمالهم ، وأن القلة من الناس هي التي ستستقيم على أمره ، فتقاوم الهوى ، وتعمل على إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وتخلص له جلَّ شأنه ، وتصدق في إيمانها به ، وتمسكها بما أنزل من كتاب وحكمة ، وتتَّبع المرسلين ، وتهتدي بهداهم . ولذلك تصبح عمليَّة التكوين النفسيّ هي الضمانة الكبرى بعون الله في الانتصار على تيار الكثرة وما ينزع إليه ، فإيجاد الإنسان النوعي ، والاهتمام بالكيف لإيجاد إنسان التغيير - هو الضمانة الكبرى لمواجهة الكثرة وتيارها ، وإحداث التغيير ، وتسخير سنة التدافع لتحقيق التغيير إلى التي هي أقوم عند الانحراف .

قال تعالى : «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (يوسف : ١٠٣) . وقال سبحانه : «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» (الأنعام : ١١٦) . وقال : «وإن كثيرا من الناس لفاسقون» (المائدة : ٤٩) «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم من الله شيئا» (التوبة : ١٤٢) «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» (البقرة : ٢٤٩) . وقال عز من قائل : «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» (الأنفال : ٦٥) . وهذه الآيات - كلّها - تنبّه إلى أن الوزن الحقيقيّ في عمليات الإصلاح والتجديد والبناء الحضاري والتغيير للكيف لا للكم فالقلة التي تمتلك العلم والفقه والخبرة والحكمة هي الجديرة بأن تتصدر أعمال وجهود الإصلاح والتغيير . وتلك الصفات لا يتصف بها إلا ذوو النفوس الزكية الشريفة التي حسن تكوينها فاستقام شأنها .

فملاحظة هذه المبادئ التي عرضناها تجعل من المؤكد أن التغيير باتجاه الصلاح أو الفساد إنما ينطلق أول ما ينطلق من النفس البشرية

ليشمل بعد ذلك ما خرج عنها .

ومن هنا يتضح أن القرآن المجيد قد بنى جانب مسؤولية النفس البشريّة عن الصلاح والفساد في الذات الإنسانية وفي الكون على جملة من المبادئ منها : إرسال الرسل «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (الإسراء : ١٥) وشخصية العقاب : «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (الأنعام : ١٦٤) وربط الجزاء بالإحسان أو الإساءة : «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها» (الإسراء : ٧) «ولله ما في السماوات والأرض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا الحسنىٰ» (النجم : ٣١) وخلق الجنّة والنار ، وإقامة ميزان الأعمال عند الحساب بالقسط ،وتفي الظلم نفيا مطلقا ، وربط جميع صور التكليف بوسع الإنسان وطاقته «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» (البقرة : ٢٨٦) ، «لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها» (الطلاق : ٧) أي من الوسع والطاقة .

وترك الإنسان ـ فيما يسأل عنه ـ ومشيئته واختياره : «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا» (الكهف : ٢٩) «اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير» (فصلت : ٤٠) ، وأعمل في ذلك إرادة الإنسان ، فقال سبحانه : «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعىٰ لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا» (الإسراء : ١٨ ـ ١٩) .

والتفرقة في المسؤولية وفي جزائها بين خطأ الإهمال وخطأ العمد «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم» (البقرة : ٢٢٥) . كما فرّق بين خطأ الإهمال وبين الإصرار على الخطأ والاستمرار فيه . وعدم المسؤولية وانتفاء الإثم في حالة الإكراه الملجئ الذي يزيل حريّة الاختيار . ونقص المسؤوليّة بنقص الحريّة وبقدر ذلك النقص ، كما في حد الزنا للمحصنات من الإماء إذ

جعل القرآن المجيد عقوبتهن نصف عقوبة المحصنات من الحرائر : «فإذا أحصنَّ فعليهنّ نصف ما على المحصنات من العذاب» (النساء : ٢٥) كل تلك الأحكام القرآنيَّة تؤكد حريّة اختيار الإنسان لما يفعل ، ومسؤوليته عن ذلك . فلا غرابة بعد ذلك ـ كله ـ أن يكون للنفس الإنسانيّة ذلك الدور الخطير في المسؤولية عن التغيير .

فكيف توجد النفس القادرة على إحداث التغيير فيما حولها ؟

إن الخطاب القرآنيّ المناسب بدأ بتهيئة سائر الظروف لاستخلاف الإنسان في هذا الوجود ـ كما رأينا من عرضنا لذلك فيما تقدم ـ ومع الاستخلاف والائتمان وسائر العوامل المشار إليها جاء الأمر بالقراءة أول أمر يتلقاه الإنسان في هذه الرسالة : «اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم» (العلق : ١ ـ ٥) ، وذلك ليوضح للإنسان أن الحقائق كلها متاحة له بالقرائتين اللتين أمر أن يقرأ بهما ، «وأنه يستطيع أن يتوصل بمداركه العديدة المدرجة المستند بعضها إلى بعض في غير تدابر ولا تنافر ولا تناشز إلى سائر تلك الحقائق : فالمدركات الغريزيّة وراءها المدركات الحسّيَّة ، وراءها المدركات العقليّة المتوصّلة إلى تلقي المدركات الغيبيَّة الآتية من طريق الوحي وإلى التسليم بها ، وقدرته على الحصول على الجواب الشافي لأي سؤال قد يثور في ذهنه ويشغل باله ليطمئن لوحدة شخصيّته «عقلية ونفسيّة» : فعقله وعقيدته وضميره ووجدانه وحسه الماديّ وعواطفه الغريزية ـ كلها ـ متجانسة متوازنة متساندة سائرة بشكل منسجم باتجاه الغاية التي حدَّد الإيمان وجهتها .

وكل خطوة من خطوات الإنسان يخطوها وهو على بيّنة من ربه وبصيرة من عقيدته ، ونور من هدى نبيّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يكون فيها تعارض بين عقله ووجدانه ولا تمزق ولا فصام بين روحه ونفسه وجسمه يستشعر الكمال في ذاته ، فينعكس ذلك الكمال على أفكاره ومعارفه وفنونه وآدابه ونظمه وعلاقاته وصنائعه وممارساته لتكون ثقافة

توحيديّة وحضارة إيمانيّة تنبثق عن أمة يتمتع إنسانها بكل تلك الصفات والمزايا التي أشرنا إليها هي التي مكنت الأمّة المسلمة من صناعة تلك الحضارة التي لم تر في الأرض مثلها «حضارة يتحقق فيها الانسجام والأمن اللذان بدأا انسجاما وأمنا في داخل النفس من خلال إيمان بالحق وإذعان له» . فتوجيه هذا الخطاب بالشكل الذي وجه به إلى الإنسان في مطلق إنسانيّته هو الكفيل بأن يبرز طاقات النفس البشريّة بكل استعداداتها ، ويمكن لها من التصرّف في قواها بدون تحديد أو تقييد ، لتنبعث حرّة إلى الغاية التي رسمها الباري سبحانه لا تقف دونها ، ولا تتردد في الوصول إليها : تحقق العمران ، وتؤدي الأمانة وتقوم بمهام الاستخلاف .

إن قبول الإنسان لهذا الخطاب الإلهي واستقرار الإيمان في قلبه سيحرّر ضميره ووجدانه من سائر القيود الخرافيّة والأوهام النفسيّة ، والمخاوف والأغلال التي تشل طاقاتها أو تقيّدها .

وسيحرّر العقل الإنسانيّ ـ كذلك ـ من القيود والأوهام التي قد تكبّله وتقيّد حركته ، ويوجد في النفس الإنسانيّة حالة الاستقرار الذاتيّ ، والأمن الداخلي ، والطمأنينة التامّة بما يحققه من انسجام الإنسان مع ذاته ، واطمئنانه لمعالم إنسانيّته . وهكذا يصبح الإنسان وحدة التغيير الفاعلة ، ونواته الأساسيّة .

حيث إن الإيمان «بوحدانيّة الله» تعالى في ألوهيّته وربوبيّته وصفاته من شأنه أن يمنح الإنسان ما هو بحاجة إليه من مثل أعلى يدفعه «نحو محاولة تخطي واقعه الماديّ ، بل تخطي حدود ذاته لتحقيق وجود أعلى وأفضل «يمثله في العقيدة الإسلاميّة الإيمان باليوم الآخر» . وهو بهذا يتخطى البيئة والطبيعة وكل الأشياء ليعلى ذاته الإنسانيّة (في إطار مفاهيم الائتمان والاستخلاف والتكريم) على الأشياء كلها ، فيخرج من دائرة الإيمان بأنّه مجرّد جسد محض أو كم ماديّ لا يستطيع ترويض الطبيعة أو تسخيرها إلّا دائرة الوعي بذاته وبدوره ، وتميّزه عن بيئته

(٧) فهو مخلوق مستخلف مكرم له دور مركزيّ في مجريات الكون يستمد دوره ومكانته من إيمانه بالإله الواحد الأحد الكبير المتعالي ، وبذلك يكون الإنسان كائنا طبيعيًا ربانيًا حضاريًا مدنيًا بطبعه .

وفي إطار «عقيدة التوحيد» ، وما تدعو الإنسان المكرّم للقيام به في هذه الحياة من «القيام بالأمانة وواجب الاستخلاف ، وتسخير الطبيعة وغير ذلك من مهام» يتخذ مفهوم بناء «الجماعة وإيجاد الأمّة» شكل الواجب الثاني بعد التوحيد أو اللبنة الثانية في بناء الوعي الذاتي لدى الإنسان إذ بدون إقامة الجماعة وبناء الأمّة لا يمكن للفرد أن يحقق تلك المهام المنوطة به وفي مقدمتها مهمة التغيير ومتطلّباته .